معنى الفطرة في القرآن وفي اللغة

كتبه غريب الديار بتاريخ السبت ١٢ رمضان ١٤٤٢

نحتاج إلى معرفة المقصود بالفطرة حتى نفهم قوله صلى الله عليه وسلم:

ما من مولود يولد إلا على هذه الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، كما تنتجون الإبل فهل تجدون فيها جدعاء؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها، قالوا: يا رسول الله، أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين[١]

لأن أغلب الخلافات حول حكم أطفال المشركين, إنما مرده الجهل بالمقصود بكلمة الفطرة, وهذا ما سوف نعرفه إن شاء الله من خلال المحاور التالية:

- معنى كلمة الفطرة في اللغة
- معنى كلمة الفطرة في القرآن
- هل الفطرة هي الإسلام؟
- حكم أطفال المشركين
- المراجع

معنى كلمة الفطرة في اللغة

قال الفراهيدي[٢]

وفطر الله الخلق, أي: خلقهم, وابتدأ صنعة الأشياء, وهو فاطر السماوات والأرض. والفطرة: التي طبعت عليها الخليقة من الدين. فطرهم الله على معرفته بربوبيته. ومنه:

حديث: النبي صلى الله عليه وكل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه.

وانفطر الثوب وتفطر, أي: انشق. وتفطرت الجبال والأرض: انصدعت.

قال أبو بكر بن دريد[3]

والجبلة: الفطرة. جبل الله عز وجل الخلق يجبلهم ويجبلهم. وهذه جبلة فلان أي خليقته التي خلق عليها.

وقال[4]

والفطر: مصدر فطر الله عز وجل الخلق يفطره ويفطره فطرا, إذا أنشأه. وتقدم أعرابيان إلى حاكم في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها, أي أنشأتها. وفطر ناب البعير, إذا طلع, فطورا, والجمل حينئذ فاطر, اكتفوا بفاطر عن ذكر الناب. وانفطر العود وغيره انفطارا, إذا انصدع أو انشق. وأفطر الصائم إفطارا, واسم ما يأكله: الفطور, بفتح الفاء. وطعام فطير: لم يختمر, وكل ما أعجلته عن إدراكه فهو فطير, ومنه قول عبد الله بن وهب الراسبي يوم النهروان: إياي والرأي الفطير, أي لا تستعجلوا بالرأي حتى يستحكم. قال: ونزل معاوية بامرأة من كلب وقد سغب فقال: هل من طعام فقالت: حاضر, فقال: صفيه لي, قالت: خبز خمير وحيس) فطير وماء نمير ولبن جهير. قولها: جهير, أي لم يمذق بماء هو رائب كحاله, وفطير, أي لم يغب فهو أطيب, والماء النمير: النامي في المشارب والذي تحسن عليه الأجسام. والفطرة: الجبلة التي فطر الله تعالى عليها الخلق. وروي في الحديث: كل مولود يولد على الفطرة.

وسيف فطار: فيه صدوع. قال الشاعر:

(حسام كالعقيقة فهو كمعي ... سلاحي, لا أفل ولا فطارا)

والفطر: شبيه بالكمأة بيض عظام, الواحدة فطرة.

قال الجوهري[5]

والفطرة بالكسر: الخلقة. وقد فطره يفطره بالضم فطرا, أي خلقه.

يمكننا أن نفهم مما سبق أن الفطرة هي الجبلة التي جبل عليها المخلوق, فالفطرة البشرية هي ما أودعه الله في الإنسان في تصرفات تلقائية ومعتقدات مثل حب الخير وكراهية الشر, وحب الاطلاع, والحاجة إلى التعلم وغيرها

فالإنسان مفطور منذ ولادته على رضاعة أمه, ومفطور على ردات فعل معينة في مواقف معينة.

بمعنى أن الفطرة هي نظام التشغيل الذي يولد عليه المخلوق، تماما كنظام التشغيل الذي يوجد في جهازك الذي تستخدم

وكما أن نظام التشغيل يسمح للجهاز بالتطور وتخزين معلومات وتحليلها، كذلك فطرة الإنسان فهي الأداة الأولى التي تمكنه من التفاعل مع محيطه بما يسمح له بالتعلم وتطور ذاته.

طبعا إذا حاولت تثبت برامج لا تتوافق مع نظام التشغيل الخاص بجهازك، جهازك لن يقبل وقد يتعطل نظام التشغيل الخاص به، كذلك الفطرة البشرية إذا أراد الإنسان أن يدخل عليها أمورا لا تتوافق معها، فإنها ترفضها، وإذا أصر الإنسان فإن الفطرة تفسد كما يفسد نظام التشغيل، ويبدأ الإنسان إلى التحول إلى عنصر مريض غير مجدي وربما ضار.

معنى الفطرة في القرآن

ورد فعل فطر الذي اشتقت منه الفطرة في القرآن اثنتي عشرة مرة، بثلاث معان

فقد ورد بمعنى خلق في آيات عدة منها قوله سبحانه:

﴿إِنِّي وَجَّهتُ وَجهِيَ لِلَّذي فَطَرَ السَّماواتِ وَالأَرضَ حَنيفًا وَما أَنا مِنَ المُشرِكينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]

وورد بمعنى الشق في عدة مواضع منها:

﴿إِذَا السَّماءُ انفَطَرَت﴾ [الانفطار: ١]

كما وردت لفظة الفطرة في القرآن مرة واحدة في قوله

﴿فَأَقِم وَجهَكَ لِلدّينِ حَنيفًا فِطرَتَ اللَّهِ الَّتي فَطَرَ النّاسَ عَلَيها لا تَبديلَ لِخَلقِ اللَّهِ ذلِكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمونَ﴾ [الروم: ٣٠]

فما المقصود من الفطرة في هذه الآية؟

إن الجواب واضح في بداية الآية وهو الحنفية، أي توحيد الله عز وجل، فالله عز وجل خلق البشر مجبولين على توحيد الله عز وجل.

فكل البشر باختلاف ألوانهم وألسنتهم كلهم يعرفون الله، وكلهم يلجأ إليه، حتى الشعوب الأكثر إلحادا وجهلا، الله عز وجل هو ملاذهم الذي يلجؤون إليه في النائبات.

عند كل قوم تجدهم يسمون الله باسم في لسانهم ويلجؤون إليه دون أن يعلمهم أحد به، فالله قد فطرهم على عبادته، ولكنهم وبوحي الشياطين في الغالب يتركون ما فطروا عليه ويقعون في فخ الشرك .

إذاً نستنتج من الآية السابقة أن الفطرة هي توحيد الله عز وجل

هل الفطرة هي الإسلام ؟

يعتقد كثير من الناس أن الفطرة هي الإسلام ويحتجون بأن الله قال في الآية السابقة

﴿ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾

والإسلام هو الدين القيم، إذاً الفطرة هي الإسلام كما يقولون

في الحقيقة أن تفسيرهم هذا أهمل معنى كلمة الدين في القرآن والتي ناقشناها سابقا وبينا أنها تعني القيد الذي يتقيد به المرء، وعليه فإن قوله سبحانه وتعالى

﴿ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾

تعني أن التوحيد هو القيد القيم الذي يتقيد به المرء، ولا تعني الإسلام، وقد وردت في موضعين غير هذا في القرآن

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهورِ عِندَ اللَّهِ اثنا عَشَرَ شَهرًا في كِتابِ اللَّهِ يَومَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ مِنها أَربَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدّينُ القَيِّمُ فَلا تَظلِموا فيهِنَّ أَنفُسَكُم وَقاتِلُوا المُشرِكينَ كافَّةً كَما يُقاتِلونَكُم كافَّةً وَاعلَموا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقينَ﴾ [التوبة: ٣٦]

فهل نقول إن الإسلام هو تقسيم شهور السنة إلى اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم، لأن الله قال بعد هذا التقسيم

﴿ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾

لا أعتقد أنه يوجد من يقول ذلك.

المرة الثانية هي قوله سبحانه

﴿ما تَعبُدونَ مِن دونِهِ إِلّا أَسماءً سَمَّيتُموها أَنتُم وَآباؤُكُم ما أَنزَلَ اللَّهُ بِها مِن سُلطانٍ إِنِ الحُكمُ إِلّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلّا تَعبُدوا إِلّا إِيّاهُ ذلِكَ الدّينُ القَيِّمُ وَلكِنَّ أَكثَرَ النّاسِ لا يَعلَمونَ﴾ [يوسف: ٤٠]

حيث وصف الله التوحيد بكونه الدين القيم فهل الإسلام التوحيد فقط ؟

بمعنى هل الإسلام لا إله إلا الله فقط دون محمد رسول الله ؟

الجواب طبعا لا، فالإسلام لا يمكن دون الإتيان بالشهادتين على الوجه المطلوب، لذلك الفطرة ليس هي الإسلام .

إن الحديث الذي صدرنا به المقال فيه دليل قوي على أن الفطرة ليست هي الإسلام حيث قال في آخره

أفرأيت من يموت وهو صغير؟ قال: الله أعلم بما كانوا عاملين

فلو كانوا مسلمين لكانوا في الجنة، فهم لم يرتكبوا ذنبا وعندهم التوحيد، ولكن رغم ذلك لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم في الجنة، لأنهم ليسوا مسلمين بعد.

الإسلام قرار بأن يسلم المرء نفسه لله عز وجل

﴿إِذ قالَ لَهُ رَبُّهُ أَسلِم قالَ أَسلَمتُ لِرَبِّ العالَمينَ﴾ [البقرة: ١٣١]

والمولود الذي لا يميز شيئا لا يعلمه، كما قال ربنا عز وجل

﴿وَاللَّهُ أَخرَجَكُم مِن بُطونِ أُمَّهاتِكُم لا تَعلَمونَ شَيئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ وَالأَبصارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلَّكُم تَشكُرونَ﴾ [النحل: ٧٨]

لا يستطيع أن يأخذ قرارا بالإسلام من عدمه، ولذلك وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكونه على الفطرة ولم يصفه بإسلام أو كفر.

فهو كالجهاز الجديد مع إعدادات ضبط المصنع، لم تدخل فيه معلومات بعد، لذلك لا يمكن أن نحكم عليه بكونه جيد أو سيء

حكم أطفال المشركين

نستخلص مما سبق أن أطفال المشركين يمرون بمرحلتين مرحلة الولادة إلى سن التمييز هم على الفطرة تماما, ثم بعد سن التمييز يعتنقون دين آباءهم الكفري حيث يقررون تقليد آباءهم

من المهم التنبيه أن الكفر يورث, فيأخذه الطفل عن والديه, يهودانه, وينصرانه, ولكن الإسلام لا يورث فرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقل أو يمسلمانه, لأن الإسلام حتى يكون صحيحا يجب أن يكون قرارا مبنيا على أدلة صريحة وثابتة, وليس مجرد تقليد كما سبق ورأينا, ولأن الكفر يمكن أن يكون تقليدا كما هي حاله غالبا.

المراجع

١- أحمد 2/315 (8164). والبخاري 8/123 (6599 و6600). ومسلم 8/53 (6854)

٢- العين المجلد ٧ الصفحة ٤١٨

٣- جمهرة اللغة المجلد ١ الصفحة ٢٦٩

٤- جمهرة اللغة المجلد ٢ الصفحة ٧٥٥

٥- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية المجلد ٢ الصفحة ٧٨١